شفاء الامراض بالتنويم

ما اعتاصَ امرٌ وسيفُ الجِدِّ مسلولُ ولا نبا من نصالِ العقلِ مصقولُ
بالعلمِ والبحثِ تبدو كلُّ خافيةٍ فأعقدُ الصبحِ بالآصالِ محلولُ

الارتقاء ناموسٌ طبيعي يعمُّ العلومَ والمعارف كما يعمُّ طوائف الحيوان والنبات ولذلك تمتاز الجرائد العلميَّة على الكتب بانها تتبع سير المعارف في ارتقائها فتدوّن تاريخها وتعمّ منافعها. وهذه الخطَّة التي سار فيها المقتطف من اول نشأتهِ وسيتابعها الى ما شاء الله. ومن المسائل العلميَّة التي اقتفى آثارها مسئلة التنويم المغنطيسي المعروف بالهبنوتزم واستخدامهِ لشفاء الامراض. فقد اثبتنا في ذلك فصلاً طويلاً في المجلد الحادي عشر موضوعهُ تعدُّد العقل واسلوب جديد للعلاج ثم طرقنا هذا الموضوع في العام الماضي في الكلام على منافع التنويم ومضارّهِ. ومرادنا الآن ان نذكر خلاصة ما وصل اليهِ بعض الاطباء الفرنسويين من معالجة الامراض بالتنويم فنقول

اشهر الاماكن التي استُعمل التنويم فيها للعلاج مدينة ننسي في فرنسا فانها مسقط رأس هذه الصناعة وفيها الطبيبان المشهوران بها ليبلت (Liébault) وبرنهيم (Bernheim) والاول منهما استخدم التنويم والاستهواء لعلاج الامراض منذ ثلاثين سنة وذاعت شهرتهُ في اوربا كلها ولكن قام عليهِ الاطباء وناقضوهُ وأخمدوا ثورتهُ. وقد اضرَّ بهِ الدجّالون الذين استعملوا طريقتهُ على غير وجهتها اكثر من خصومهِ الاطباء الذين افرغوا الجهد في مقاومتهِ. "وضرر الشيء ممَّن ينصرهُ لا بطريقهِ اكثر من ضررهِ ممن يطعن فيهِ بطريقهِ وهو كما قيل عدوٌّ عاقل خيرٌ من صديقٍ جاهل" كما قال الامام الغزالي. ولبث امر التنويم ضعيفًا الى ان قام لنصرتهِ الدكتور برنهيم احد اساتذة مدرسة ننسي الطبيَّة وألَّف كتابًا في الاستهواء وفائدتهِ الطبيَّة وكان ذلك سنة ١٨٨٠ فشاع كتابهُ حالاً وذاع بهِ اسلوب ليبلت وكثر المشيّعون لهُ والمتطبّبون بطبهِ. وقد رأينا ان نصف اسلوب العلاج الذي يجري عليهِ ليبلت ملخّصًا عما كتبهُ الدكتور تُكي الانكليزي الذي زار مدينة ننسي في الصيف الماضي وشرح ما رآهُ فيها شرح طبيب خبير قال: ان الدكتور ليبلت يشاهد المرضى في دار صغيرة منفصلة عن بيتهِ يفتحها كل يوم الساعة السابعة صباحًا فيدخلونها وعددهم من ثلاثين الى اربعين وهم من اواسط الناس وعامتهم واكثرهم مصابٌ بامراض مزمنة كالنائح المزمن والربو والصرع (داء النقطة)

وداء المفاصل والنقرلجيا وسوء الهضم . وقد يكون في بعضهم امراض عصبية او دورية نادرة . فاذا كان المريض جديدًا اتى دار العيادة اول مرة يُسأَل عن تاريخ مرضهِ بالتدقيق ويُكتب كل ذلك في دفتر العيادة ثم يُفحَص عن اعراض مرضهِ الحاضرة ويؤمَر بالجلوس جانبًا ليراقب معالجة غيرهِ من المرضى لان ذلك يسكّن اضطرابهُ ويقوّي ثقتهُ بالعلاج والشفاء . وبعد نحو نصف ساعة يجيء دورهُ فيدعوهُ الدكتور ليبلت ويجلسهُ على كرسي كبير ويبشُّ في وجههِ ويطيّب قلبهُ بالكلام ويطلب منهُ ان ينفي من ذهنهِ كل الهواجس ويصب افكارهُ كلها على ما يقولهُ لهُ وما يشير بهِ اليهِ . وبعد قليل يقول لهُ قد ثقُلَ جفناك وصرتَ تجد صعوبةً في فتح عينيك وثقل سمعك فلم تعد تسمع كلامي سمعًا واضحًا والآن قد ضعف بصرك وابتدأ الخدَر في اعضائك وها قد أُغمضتْ عيناك . يقول ذلك ويغمض لهُ عينيهِ بيديهِ . ولنفرض ان هذا الرجل مصاب بسوء الهضم المزمن يصيبهُ ألمٌ في معدتهِ كلما اكل وجشاء وصداع وأرَق وكدَر وما اشبه من اعراض سوء الهضم وجسمهُ يدل على ذلك فانهُ نحيف البدَن منكسر الاجفان جاف الجلد تراهُ اللون . فيشرع الدكتور ليبلت يجسُّ الاعضاء التي يصيبها الألم ويقول لهُ ان هذا الألم سيزول من هنا سريعًا ويصطلح مضمك وتجود قابليّتك وتنتظم دورتك الدموية ويزول ما يصيبك من الجشاء والغثيان وتنام جيدًا وتشفى تمام الشفاء . ويتركهُ على هذه الحالة مدةً ثم يوقظهُ بالكلام او بالتروبح بالمروحة . فيستيقظ مرتاحًا لا ألم بهِ ولا تعب ويعود الى بيتهِ وقد جادت قابليتهُ . وقبلما يخرج من دار العيادة يطلب منهُ الدكتور ليبلت ان يتردّد عليهِ مرارًا فيتردد ويصير تنويمهُ اسهل فاسهل حتى قد ينام بمجرّد جلوسهِ على الكرسي ونظر الدكتور ليبلت اليهِ . ولا يمضي عليهِ زمن طويل حتى يشفى شفاء تامًّا ويزيد سمنهُ ويتحسّن لونهُ

واذا سألتَ الذين يعالجون كذلك عن سبب نومهم فبعضهم ينسبهُ الى شخوص عينيهم في عيني المنوّم وبعضهم الى كلام المنوّم المُنعِس فانهُ مثل الهدهدة للاطفال وبعضهم الى حركات يديهِ . وكلهم متفقون على انهم لا يتزعجون حينما ينامون واكثرهم على انهم لا يتزعجون ايضًا حينما يستيقظون ولكن بعضهم يتزعج حينما يستيقظ كمن ينام في غير وقت نومهِ وعلاجهُ ان ينوّم ثانيةً ويقال لهُ انهُ سيستيقظ مرتاحًا فيستيقظ كذلك

واكثر المرضى الذين يعالجهم ليبلت من العامّة المعتادين على الطاعة والانقياد وهذا الذي وجدناهُ نحن بالاختبار فان الرجال الاقوياء العقول والارادة قلما ينامون ويقال ان كل من سواهم لا يتعذّر تنويمهُ الاّ نادرًا ذكرًا كان او انثى . وان الاولاد بين السنة الثامنة والرابعة عشرة اكثر اذعانًا للنوّم من غيرهم واقل الناس اذعانًا الاطفال والشيوخ

وزار الدكتور نكي مدينة امستردام ورأى الدكتور فان رنترجن والدكتور فان ايدن وهما من تلامذة الدكتور ليبلت ويطبّبان مثله بالتنويم والاستهواء وغالب مرضاهم من الوجهاء والاواسط واكثرهم من المتعلمين لان العلم شائع في امستردام اكثر شيوع . وبلغه انهما ناجحان في تطبيبهما

ولا بدّ من ان يسأل سائل هل يمكن معالجة كل الامراض بالتنويم . والجواب على ذلك ان بعض الامراض لا يجمع التنويم فيه وبعضها يجمع فيه قليلاً جدًّا . فالتنويم لا يزيل السرطان ولا الدمامل والاورام ولا يردُّ الجهاز الذي افسدهُ المرض ولا يشفي الآفات الجراحيَّة ولا يوقف الجدري ولا الدفتيريا ولا غيرها من الامراض الحادَّة ولا نظن انهُ يفيد في شيء من الامراض الخميريَّة الاَّ اذا استُعمل مع وسائط العلاج الدوائية المعروفة . واكثر فعلهِ في الامراض المزمنة كامراض الدماغ والاعصاب والقناة الهضميَّة ولا سيَّما في الروماتزم والفالج والهستيريا

وقد شاهدنا بالامس حادثة غريبة من حوادث التنويم وهي ان فتًى عثرت رجلهُ بهرَّة في ليلةٍ ظلماء في مدرسة المنصورة فاصابهُ خلل في دماغهِ واعترتهُ نوبات كنوبات الفالج يظن فيها نفسهُ مسكونًا بشيخ اسمهُ الشيخ عبد القادر على حسب الاعتقادات الشائعة في هذه البلاد . وقد عالجهُ الدكتور نحاس بالاستهواء فاذا نوَّمهُ انصرف من حالتهِ الطبيعيَّة الصحيَّة الى الحالة الاخرى وحسب نفسهُ الشيخ عبد القادر ونسي اسمهُ الاول وهو احمد . وينص حينئذٍ قصتهُ بانهُ من ارواح احد المشايخ الذين قُتلوا في مدرسة المنصورة لمَّا كانت محكمةً ثم دخل هرَّةً واتصل منها الى جسم هذا الفتى . ولما شاهدناهُ منوَّمًا قرصهُ احد الحضور في وتر قدمهِ المقدَّم حيث القرص مؤلم جدًّا وشدَّ القرصة كثيرًا حتى احمرَّ مكانها ولما أُوقظ صار يعرج في مشيهِ وسأَلناهُ عن سبب عرجهِ فقال انهُ كان ذاهبًا الى بيتهِ فعثر في الطريق وانصدعتْ رجلهُ وهذه القصَّة مختلقة وقد ترتبت في ذهنهِ على ألم القرصة فنوَّم ثانيةً وقال لهُ الدكتور نحاس ان ما برجلك من الالم قد زال تمامًا ثم ايقظهُ فمشى حسب عادتهِ ولم يعرج وسئِل عن عرجهِ السابق فلم يدرِ من امرهِ شيئًا . وحدث كل ذلك امامنا في نحو ربع ساعة من الزمان وهو دليل قاطع على ان التنويم قد يزيل الألم باشارة المنوِّم

وللتنويم فائدة أُخرى غير شفاء بعض الامراض وهي كبح جماح العادات القبيحة كما جاء في مقالتنا السابقة في "تعدُّد العقل والاسلوب الجديد للعلاج". وروى الدكتور نكي ان الدكتور ليبلت عالج بهِ بعض المدمنين للمسكرات فابطلوا السكر واقتصروا على قليل من الخمر يشربونهُ مع الطعام واذا قُدِّم لهم المسكر في وقت آخر لم يذوقوهُ ولا رأَوا من انفسهم ميلاً اليهِ . وعالج

رجلاً من مستخدمي السكة الحديدية وكان يفرط في استعمال التبغ تدخيناً ومضغاً واصابه من جراء ذلك سوء هضم وتقطع في نبضان القلب وارق وارتجاف العضلات وخيف عليه من العمى فنوّمه واستهواه ليبطل التبغ تماماً ويكرهه فابطله وصار يكرهه . وقد رأينا امرأة قالت انها كانت مولعة بتدخين التبغ اشد الولع فاستهواها الدكتور نحاس وامرها بتركه فتركته . فاذا صحّ استخدام التنويم لابطال العادات المضرّة فسيتسع به نطاق الطب الى ان يتناول شفاء الامراض الادبيّة التي يعجز عنها الوعظ والانذار فتُطبّب به النفوس كما تُطبّب به الابدان ويحيا طب الكهان والدجالين الاقدمين ولكن على صورة علمية معقولة ولا داعي حينئذٍ للتوكوء على السيال المغنطيسيّ ولا على قوّة تفوق الطبيعة لان التنويم نفسهُ من حيث هو نوم كالنوم الطبيعيّ كافٍ لاجراء ذلك وهذا هو مذهب الدكتور بريد الانكليزي الذي بنى التنويم المغنطيسي على اساسهِ العلمي

ومن رأي الدكتور ليبلت ان النوم الطبيعي نفسهُ استهواء شخصيّ . فان دخول الانسان الى غرفتهِ التي ينام فيها وخلعهُ ثيابهُ واستلقاءهُ في سريرهِ وتغميضهُ عينيهِ هي بمثابة الاشارات التي يستخدمها المنوّم فتستهوي للنوم فينام ما لم يكن فكرهُ مشغولاً بشغل شاغل . وقال انهُ كثيرًا ما يعالج نفسهُ بالاستهواء الشخصي فاذا اصابتهُ الشقيقا مثلاً حتم على نفسهِ ان ينام نصف ساعة ويستيقظ سليماً منها فيحدق بنظرهِ الى شيء لامع حتى ينام فيستيقظ بعد نصف ساعة وقد فارقتهُ الشقيقا . ونحن نعرف رجلاً اصيب باسهال شديد وحمّى خفيفة واعراض اخرى مثل اعراض الحمّى التيفوئيدية في بداءتها فظن الطبيب انهُ ربما يصاب بهذهِ الحمّى وعلم المريض بذلك فقال لا وقتَ لي لامرض هذا المرض الطويل وقام من ساعتهِ ولبس ثيابهُ وتمنطق بمنطقة من الصوف الكثير فوق قميصهِ وخرج الى مكتبهِ كأنهُ غير مصاب بشيء وللحال انقطع الاسهال عنهُ وفارقتهُ الحمى . ولا نجزم بأنّ ما اصابهُ من قبيل الاستهواء الشخصي اذ يُحتمل ان الاسهال والحمى بلغا حدهما وانقطعا من نفسهما

وقد حدّد الدكتور برنهيم التنويم بانهُ حالة من حالات النفس يصير بها الانسان عرضةً للتأثر بالاستهواء . ويصير بينهُ وبين منوّمهِ علاقة شديدة حتى يعمل ما يوعز اليهِ بهِ فان قال لهُ قم قام وان قال لهُ اجلس جلس وان قال لهُ امشِ مشى واذا كان بهِ حالة غير صحيّة فيمكن للمنوّم ان يأمرهُ ليتغلب عليها او ان يقنعهُ بانها زالت منهُ فيتغلب عليها وهو نائم على الاقل ثم تزيد قوتهُ وتضعف هذه الحالة حتى يتغلب عليها وهو مستيقظ ايضاً . ومن المؤكد ان الجسم يتغلب على ما بهِ من الالم وهو نائم بالنوم الطبيعي فيسكن فيهِ الم العين والاذن والضرس

والصداع . والنوم الصناعي الحادث بفعل الافيون والكلور وفورم ونحوهما يزيل الالم ايضاً وقتياً وقد يزيله دائماً . ولا يبعد ان التنويم يفعل على هذا الاسلوب ايضاً ولكن حتى الآن لم تدرك حقيقته ولا حقيقة فعله في شفاء الامراض . والعلماء باذلون جهدهم في حل هذه المسئلة ولا بدَّ من حلها عاجلاً او آجلاً اذ قد بيَّنت الاكتشافات السابقة ان سيف العقل لا يبلى ونار العزم لا تخبو ولقد احسن مَن قال

لا تيأسنَّ اذا اعيتك مسئلة وبابها اقرعهُ من حين الى حين
ولا تقُلْ مستحيل فقهُ ابدًا فمستحيلٌ " بقاموس المجانين "

سبب اسوداد الزنوج

ما من مسئلة بين المسائل الفزيولوجيَّة اشغلت افكار الخاصَّة والعامَّة من قديم الزمان الى الآن مثل هذه المسئلة . فان البشر من اب واحد وأم واحدة وكل الفروق التي بينهم في القامة والسحنة يمكن تعليلها وردها الى اسبابها الطبيعيَّة واما سواد اجسام الزنوج سكان اواسط افريقية وغيرها من جزائر البحر فقد ذهبوا فيه مذاهب شتى اشهرها ان حرّ الاقاليم الاستوائية هو السبب في اسوداد بشرة الزنوج . قال ابن خلدون في مقدمتهِ "ان هذا اللون يشمل اهل الاقليم الاول والثاني من مزاج هوائهم للحرارة فان الشمس تسامت رؤوسهم مرتين في كل سنة قريبة احداها من الأخرى فتطول المسامتة عامَّة الفصول فيكثر الضوء لاجلها ويلحُّ الغيظ الشديد عليهم وتسود جلودهم لافراط الحرّ" . وقال ابن سينا في ارجوزتهِ المشهورة

بالزنجِ حرٌّ غيَّرَ الاجسادا حتى كسا جلودها سوادا

وهذا مذهب كثيرين من المتأخرين ايضاً . على ان مَن يدرس العلوم الطبيعيَّة يجد ان اللون الاسود اقل الالوان مناسبةً لسكان الاقاليم الحارَّة لانهُ يساعد ابدانهم على امتصاص الحرارة اكثر من غيرهِ من الالوان والابيض اكثر الالوان مناسبةً لهم لانهُ يقي ابدانهم من الحرارة . والامتحان المشهور قاطع في ذلك فانهُ اذا وُضعَت قطع من الجوخ على الثلج بعضها اسود وبعضها ابيض وبعضها احمر الخ ووُضع الثلج في الشمس ذاب تحت القطعة السوداء اكثر مما يذوب تحت غيرها دلالةً على ان اللون الاسود اصلح الالوان لامتصاص الحرارة والابيض اقلها صلاحيةً لذلك . فكان الواجب بحسب ناموس الانتخاب الطبيعي ان يكون اللون الابيض متغلبًا حيث يتغلَّب الحرُّ واللون الاسود حيث يتغلب البرد اي على الضدِّ مما نراهُ الآن .